

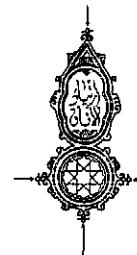
**This item is provided to support UOB courses.**

**Its content may not be copied or emailed to multiple sites or posted to a listserv without the copyright holder's express written permission.**

**However, users may print, download, or email it for individual use for learning and research purposes only.**

**هذه الوثيقة متوفرة لمساندة مقرارات الجامعة.**

**ويمنع منعاً باتاً نسخها في نسخ متعددة أو إرسالها بالبريد الإلكتروني إلى قائمة تعميم بدون الحصول على إذن مسبق من صاحب الحق القانوني للملكية الفكرية لكن يمكن للمستفيد أن يطبع أو يحفظ نسخة منها لاستخدام الشخصي لأغراض التعلم والبحث العلمي فقط.**



رحلة ابن فضلان إلى بلاد الترك والروس والصقالبة (٩٢١) / أدب رحلات  
أحمد بن فضلان / مؤلف ، [ حرزها وقائم لها : شاكر لعيبي ]  
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٣ ،  
حقوق الطبع محفوظة



دار السريدي للنشر والتوزيع  
أبو ظبي ، ص. ب : ٤٤٨٠ ،  
الإمارات العربية المتحدة ،  
هاتف : ٦٣٢٢٠٧٩ ، فاكس : ٦٣١٢٨٦٦ ،  
هاتف : ٧٥٢٣٠٨ ، فاكس : ٧٥١٤٣٨



المؤسسة العربية للدراسات والنشر  
المركز الرئيسي :  
بيروت ، الصناع ، بناية عبد بن سالم ،  
ص. ب : ١١٥٤٦٠ ، العنوان البريدي : مركبالي ،  
هاتف : ٧٥٢٣٠٨ ، فاكس : ٧٥١٤٣٨

التوزيع في الأردن :  
دار الفارس للنشر والتوزيع  
عمان ، ص. ب : ٩١٥٧ ، هاتف : ٥٦٨٥٥٠١ ،  
هاتف : ٥٦٨٥٥٠١ ، هاتفاكس : ٥٦٨٥٥٠١  
E-mail : mkavyali@ionet.com

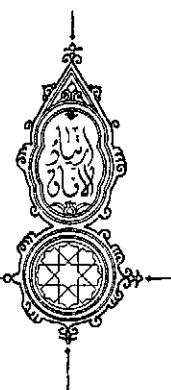
الخطوط وتصميم الملاف :  
مثير الشعري / مصر  
الصف الشعري :  
القرية الإلكترونية / أبو ظبي + مطبعة الجامعة الأردنية / عمان  
التنفيذ الطباعي :  
سيكور للطباعة والنشر / بيروت ، لبنان

# رحلة ابن فضلان

إلى بلاد الترك والروس والصقالبة

٩٢١

حرزها وقائم لها : شاكر لعيبي

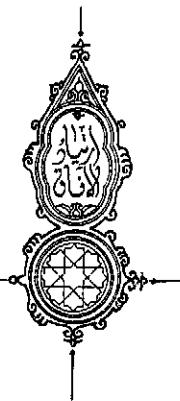


All rights reserved . No part of this book may be reproduced , stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publishers .

ISBN 09953-441-36-7  
جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تحريره في نطاق استثناء المعلمات أو  
نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خططي من الناشرين .

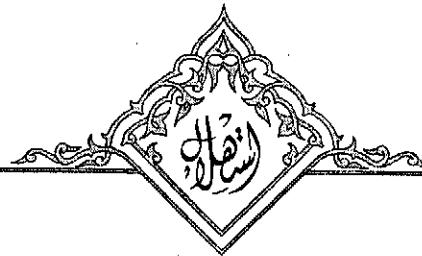
ISBN: 9953-441-36-7

يشرف على هذه السلسلة:  
**نوري المخاني**



.. . «فِلَمَا كَانَ وَقْتُ الْعَصْرِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ جَاءُوكُمْ بِالْجَارِيَةِ إِلَى شَيْءٍ قَدْ عَمِلْتُهُ مِثْلَ مَلْبَنِ الْبَابِ فَوَضَعْتُ رِجْلِيهَا عَلَى أَكْفَ الرِّجَالِ وَأَشْرَفْتُ عَلَى ذَلِكَ الْمَلْبَنِ ، وَتَكَلَّمْتُ بِكَلَامِ لَهَا فَأَنْزَلْتُهَا ، ثُمَّ أَصْعَدْتُهَا ثَانِيَةً ، فَفَعَلَتْ كَفَلُهَا فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى ، ثُمَّ أَنْزَلْتُهَا وَأَصْعَدْتُهَا ثَالِثَةً ، فَفَعَلَتْ كَفَلُهَا فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى ، ثُمَّ دَفَعْتُهَا إِلَيْهَا دَجَاجَةً فَقَطَعَتْ رَأْسَهَا وَرَمَتْ بِهِ وَأَخْذَوْهَا الدَّجَاجَةَ فَأَلْقَوْهَا فِي السَّفِينَةِ . فَسَأَلَتِ التَّرْجِمَانَ عَنْ فَعْلَهَا فَقَالَ : قَالَتِي فِي أُولَى مَرَّةٍ أَصْعَدُوهَا : هُوَ ذَا أَرَى أُمِّي وَأَمِّي وَقَالَتِي فِي الثَّانِيَةِ : هُوَ ذَا أَرَى جَمِيعَ قَرَابِيِّ الْمَوْتِي قَعُودًا . وَقَالَتِي فِي الْمَرَّةِ الْثَالِثَةِ : هُوَ ذَا أَرَى مَوْلَاهِي قَاعِدًا فِي الْجَنَّةِ وَالْجَنَّةِ حَسَنَةُ خَضْرَاءِ وَمَعْهُ الرِّجَالُ وَالْغَلَمَانُ وَهُوَ يَدْعُونِي فَأَذْهَبُوهَا إِلَيْهِ . فَمَرَوْهَا بِهَا نَحْوَ السَّفِينَةِ فَنَزَعَتْ سَوَارِينِ كَانَا عَلَيْهَا وَدَفَعْتُهُمَا إِلَى الْمَرْأَةِ الَّتِي تُسَمِّي مَلْكَ الْمَوْتِ وَهِيَ الَّتِي تَقْتَلُهَا وَتَزَعَّتْ خَلَالَهَا كَانَا عَلَيْهَا وَدَفَعْتُهُمَا إِلَى الْجَارِيَتِينَ الَّتِيْنَ كَانَتَا تَخْدِمَاهُمَا وَهُمَا ابْنَتَا الْمَرْأَةِ الْمَعْرُوفَةِ بِمَلْكِ الْمَوْتِ . ثُمَّ أَصْعَدُوهَا إِلَى السَّفِينَةِ وَلَمْ يَدْخُلُوهَا إِلَى الْقَبْةِ وَجَاءَ الرِّجَالُ وَمِنْهُمْ التَّرْجِمَانُ وَالْخَشْبُ وَدَفَعُوهَا إِلَيْهَا قَدْحًا نَبِيَّا فَخَنَّتْ عَلَيْهِ وَشَرِبَتْهُ ، فَقَالَ لِي التَّرْجِمَانُ : إِنَّهَا تَوَدُّ صَوَاحِبَتِهَا بِذَلِكَ ثُمَّ دَفَعَ إِلَيْهَا قَدْحَ أَخْرَى فَأَخْذَذَتْهُ وَطَوَّلَتِ الْغَنَاءُ وَالْعَجُوزُ تَسْتَحْتَهَا عَلَى شَرِبَهِ وَالْدَّنْوُلِ إِلَى الْقَبْةِ الَّتِي فِيهَا مَوْلَاهَا فَرَأَيْتُهَا وَقَدْ تَبَلَّدَتْ وَأَرَادَتْ دُخُولَ الْقَبْةِ فَأَدْخَلَتْ رَأْسَهَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ السَّفِينَةِ فَأَخْذَذَتِ الْعَجُوزُ رَأْسَهَا وَأَدْخَلَتِهَا الْقَبْةَ وَدَخَلَتْ مَعَهَا . وَأَخْذَ الرِّجَالُ يَضْرِبُونَ بِالْخَشْبِ عَلَى التَّرَاسِ لَثَلَاثَةِ يَسْمَعُ صَوْتُ صَيَاحَهَا فَيَجْزِعُ غَيْرَهَا مِنَ الْجَوَارِيِّ وَلَا يَطْلَبُنَ الْمَوْتَ مَعَ مَوَاتِيهِنَّ ثُمَّ دَخَلَ إِلَى الْقَبْةِ سَيِّدَةُ رِجَالٍ فَجَامِعُوا بِأَسْرِهِمُ الْجَارِيَةِ ثُمَّ أَضْجَبُوهُمْ إِلَى جَانِبِ مَوْلَاهَا أَمْسِكَ اثْنَانِ رِجْلِهَا وَاثْنَانِ يَدِهَا وَجَعَلَتِ الْعَجُوزُ الَّتِي تُسَمِّي مَلْكَ الْمَوْتِ فِي عَنْقِهَا حَبْلًا مُخَالَفًا وَدَفَعَهُ إِلَى اثْنَيْنِ لِيَجْذِبَاهُ وَأَقْبَلَتْ وَمَعْهَا خَنْجَرٌ عَرِيشُ النَّصْلِ فَأَقْبَلَتْ تَدْخُلَهُ بَيْنَ أَصْلَاعِهَا مَوْضِعًا مَوْضِعًا وَتَخْرَجَهُ وَالرِّجَالُ يَخْنَقُهَا بِالْحَبْلِ حَتَّى مَاتَتْ . »

من نص الرحلة ص 108



تهدف هذه السلسلة بعث واحد من أعرق ألوان الكتابة في ثقافتنا العربية ، من خلال تقديم كلاسيكيات أدب الرحله ، إلى جانب الكشف عن نصوص مجهولة لكتاب ورحلة عرب و المسلمين جابوا العالم و دونوا يومياتهم و انطباعاتهم ، ونقلوا صوراً لما شاهدوه و خبروه في أقاليمه ، قرية و بعيدة ، لاسيما في القرون الماضية الذين شهدوا ولادة الاهتمام بالتجربة الغربية لدى النخب العربية المثقفة ، ومحاولة التعرف على المجتمعات والناس في الغرب ، الواقع أنه لا يمكن عزل هذا الاهتمام العربي بالأخر عن ظاهرة الاستشراق والمستشرقين الذين ملأوا دروب الشرق ، ورسموا له صوراً ستملا مجلدات لا تُحصى عدداً ، خصوصاً في اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية ، وذلك من موقعهم القرى على خارطة العالم والعلم ، ومن منطلق المستثار بالأشياء ، والمتهم لترويج صور عن «شرق ألف ليلة وليلة» تغذى أذهان الغربيين ومخيلاتهم ، وتمهد الرأي العام ، تاليًا ، للغزو الفكري والعسكري لهذا الشرق . ولعل حملة نابليون على مصر ، بكل تداعياتها العسكرية والفكرية في ثقافتنا العربية ، هي النموذج الأم لذلك . فقد دخلت المطبعة العربية إلى مصر مقطرة وراء عربة المدفع الفرنسي

موقعه الأدبي على هامش الحضارة الحديثة ، المتحضر على ماضيه التليد ، والتأثر إلى العودة إلى قلب الفاعلية الحضارية .

إن أحد أهداف هذه السلسلة من كتب الرحلات العربية إلى العالم ، هو الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكل عن طريق الرحلة ، والأفكار التي ترسّبت عبر سطور الرحلة ، والابتهاجات التي ميزت نظرتهم إلى الدول والناس والأفكار . فأدب الرحلة ، على هذا الصعيد ، يشكل ثروةً معرفيةً كبيرةً ، ومخزناً للقصص والظواهر والأفكار ، فضلاً عن كونه مادة سرديةً مشوقة تحتوي على الطريف والغريب والمدهش مما التقته عيون تتجول وأنفس تتنقل بها ترى ، ووعي يلمُ بالأشياء ويحللها ويراقب الظواهر ويتفكرُ بها .

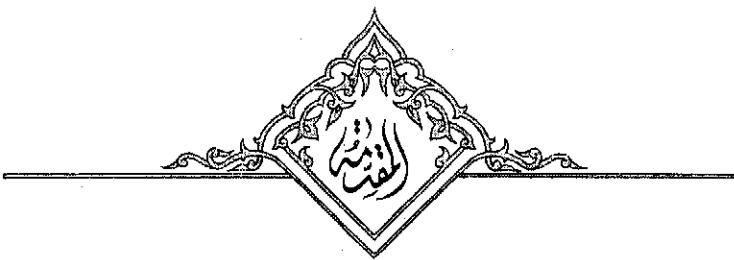
أخيراً ، لا بد من الإشارة إلى أن هذه السلسلة التي قد تبلغ المائة كتابٍ من شأنها أن تؤسس ، وللمرة الأولى ، لكتبة عربية مستقلة مؤلفة من نصوص ثرية تكشف عن همة العربي في ارتياح الأفاق ، واستعداده للمغامرة من باب تأمين المعرفة مقرونةً بال المتعلقة ، وهي إلى هذا وذلك تقطعي المعمور في أربع جهات الأرض وفي قاراته الخمس ، وتحمّل إلى نشان معرفة الآخر وعاليه ، البحث عن مكونات الذات الحضارية للعرب والمسلمين من خلال تلك الرحلات التي قام بها الأدباء والمفكرون والمتصوفة والحجاج والعلماء ، وغيرهم من الرحالات العرب في أرجاء ديارهم العربية والإسلامية .

محمد أحمد السويدى

لتأسيس للظاهرة الاستعمارية بوجهها العسكري والفكري .

على أن الظاهرة الغربية في قراءة الآخر وتلقيه ، كانت دافعاً ومحرضًا بالنسبة إلى النخب العربية المثقفة التي وجدت نفسها في مواجهة صور غربية لمجتمعاتها جديدة عليها ، وهو ما استفز فيها العصب الحضاري ، لتجد نفسها تملك ، بدورها ، الدوافع والأسباب لتشدّر الرجال نحو الآخر ، ببحث واستكشافاً ، وتعود ومعها ما تنقله وترعرعه وتقوله في حضارته وغطّ عيشه وأوضاعه ، ضاربة بذلك الأمثال للناس ، ولينبعث في المجتمعات العربية ، وللمرة الأولى ، صراع فكري حادٌ تستقطبُ إليه القوى الحية في المجتمع بين مؤيد للغرب موالي له ومتهمٍ لأفكاره وصياغاته ، وبين معادي للغرب ، رافض له ، ومستعدٍ لمقاتلته .

وإذا كان أدب الرحلة الغربي قدتمكن من تنميـة الشرق والشـرقـيين ، غيرـ رسم صورـ دنيـا لهمـ ، بـواسـطة مـخـيلـة جـائـعـة إـلى السـاحـريـ والأـيـروـسيـ والعـجـائـيـ ، فإنـ أدـبـ الرـحـلـةـ العـربـيـ إـلـىـ الـغـربـ وـالـعـالـمـ ، كـماـ سـيـتـضـعـ منـ خـالـلـ نـصـوصـ هـذـهـ سـلـسـلـةـ ، رـكـزـ ، أـسـاسـاـ ، عـلـىـ تـبـعـ مـلامـعـ النـهـضـةـ الـعـلـمـيـةـ وـالـصـنـاعـيـةـ ، وـتـطـوـرـ الـعـمـرـانـ ، وـظـاهـرـ الـعـصـرـةـ مـثـلـةـ فـيـ التـطـوـرـ الـحـادـثـ فـيـ غـطـ العـيـشـ وـالـبـنـاءـ وـالـجـمـعـاـنـ وـالـحـقـوقـ . لقد انصرف الرحالات العرب إلى تكحيل عيونهم بصور النهضة الحديثة في تلك المجتمعات ، مدفوعين ، غالباً ، بشغف البحث عن الجديد ، وبالرغبة العميقـةـ الجـارـفةـ لاـ فـيـ الـاستـكـشـافـ فقطـ ، منـ بـابـ الفـضـولـ الـعـرـفـيـ ، وإنـاـ ، أـسـاسـاـ ، منـ بـابـ طـلـبـ الـعـلـمـ ، وـاستـهـامـ التجـارـبـ ، وـمحاـولةـ الـأـحـدـ بـعـضـيـاتـ التـطـوـرـ الـحـدـيثـ ، وـاقتـفـاءـ أـثـرـ الـآـخـرـ للـخـرـوجـ منـ حـالـةـ الشـلـلـ الـحـضـارـيـ الـتـيـ وـجـدـ الـعـربـ أـنـفـسـهـمـ فـرـيسـةـ لهاـ . هناـ ، عـلـىـ هـذـاـ التـنـقـلـ ، نـجـدـ أـحـدـ الـمـصـادـرـ الـأـسـاسـيـةـ الـمـؤـسـسـةـ لـنـظـرـةـ الـشـرـقـيـةـ المـنـهـشـةـ بـالـغـربـ وـحـضـارـتـهـ ، وـهـيـ نـظـرـةـ الـمـتـلـعـ إـلـىـ الـمـدـنـيـةـ وـحـدـاثـتـهـاـ منـ



إذا ما استحقّت رحلة ابن فضلان التي قام بها سنة 921م عنابةً استثنائيةً من طرف الباحثين والمحققين ، فلأنّها من أوائل الرحلات العربية التي وصلت إلينا . ومقارنة برحالة أبي دفَن سنة 942 ، ورحالة المقدسي سنة 985-990م ، فإن رحلة ابن فضلان تظلُّ مشغولةً بهمْ توثيقِ صرف أكثر من اهتمامها بالشأن الجغرافي . إنّها وصفٌ أثريوبولوجيٌ يتمحور حول موضوع واحدٍ محدّدٍ لا يحيط عنه رغم قصر السُّسخة الواصلة إلينا .

لقد انطلق ابن فضلان يوم الخميس 11 صفر سنة 309هـ ، الموافق 21 حزيران سنة 921م ، برحلة شاققة بتكليف من الخليفة المقتدر العباسي الذي طلب الصقالبة العون منه . واستغرقت الرحلة أحد عشر شهراً في الذهاب ، وكانت مليئة بالمخاطر والمشاق والمصاعب السياسية والانفتاحات على الآخر المختلف ثقافياً .

والصقالبة هم سكانُ شمال القارة الأوربية ، وكانوا يسكنون على أطراف نهر الفولغا ، وتقع عاصمتهم بالقرب من (قازان) اليوم في خطٍ يوازي مدينة موسكو .

وكان وفداً الخليفة المقتدر إلى ملك الصقالبة يتكون من أربعة رجالٍ أساسين وبضعة مرافقين من الفقهاء والمعلمين والغلمان .

الذي قام به د. الدهان ، وبالاستعانة ، كما أحسب ، بطبعه وليد زكي طوغان العربية-الألمانية .

### ياقوت الحموي يقود إلى ابن فضلان

قبل التوصل إلى اكتشاف مخطوطة مشهد التي نشرها د. الدهان فإن النقولات التي قام بها ياقوت الحموي في (معجم البلدان) عن رحلة ابن فضلان هي التي قادت المستشرقين والباحثين للاهتمام بابن فضلان محاولين العثور على نسخة من عمله ، وهو ما توصلوا إليه أخيراً .

يشبت د. الدهان أن الإصطخري<sup>(2)</sup> وابن رسته والمسعودي قد قرأوا رسالة ابن فضلان ونقلوا عنه دون أن يثبتوا أنهم قد نقلوا عنه . لكن الرجوع إلى هؤلاء يبرهن أن ما يذكرونه ، عن الروس والخزير والبلغار ، لا يبدو كثیر الطابق مع رسالة ابن فضلان إلا عرضاً وبنقاط معلوماتية مشاعنة ، يمكن أن تتهيأ لأي جغرافي جاد دون أن ينقل بالضرورة عن غيره .

يدرك الدهان أن ياقوت ، في القرن السابع ، كان (أول) من أشار إلى ابن فضلان ، مختاراً فصولاً من رسالته ومدرجاً إياها في معجميه ، مصراً حائياً ياقوت ، بأوضح

(2) الإصطخري : هو أبو القاسم إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري ، المعروف بالكرخي ، نشأ في إصطخر وتُسبب إليها . وفي (كتشf الظلون) هو أبو زيد محمد بن سهل البختي ، وفي دائرة المعارف الإسلامية هو أبو إسحق إبراهيم بن محمد الفارسي الذي عاش في النصف الأول من القرن الرابع الهجري . طلب العلم وتبغ في حدود عام 349 هـ ، وعني بأخبار البلاد ، فخرج بطوف المناطق حتى وصل إلى الهند ، ثم إلى سواحل الخط الأطلسي ، وفي رحلاته لقي نفراً من العلماء في الحقوق المختلفة . لم تكن مصادر علم البلاد (علم الجغرافيا) موفورة في عصره ، فكان بذلك أول جغرافي عربي صفت في هذا الباب ، إنما عن مشاهدة فعلية وإنما نقلأ عن كتاب بطليموس . وقد نقلت مؤلفاته إلى عدة لغات وتم طبعها عدة مرات . وقد وصلنا من أعماله كتاب : كتاب (صور الأقاليم) الذي ألفه على اسم أبو زيد البختي ، والثاني كتاب (مسالك المالك) .

### النسخة الوحيدة المخطوطة رسالة ابن فضلان:

صدرت الطبعة الأولى من «رسالة ابن فضلان» بدمشق سنة 1959 عن مجمع اللغة العربية في دمشق بتحقيق الدكتور سامي الدهان ، مع تقديم واسع وشروحات ضافية . ثم صدرت طبعتها الثانية عن مديرية إحياء التراث العربي في وزارة الثقافة والإرشاد القومي السوري عام 1977 . ثم صدرت لها طبعة ثالثة (كتب عليها أنها الطبعة الثانية!) سنة 1987 عن مكتبة الثقافة العالمية في بيروت ، وعليها نعتمد نحن في طبعتنا هذه .

يتخذ الدكتور الدهان من (صورة شمسية) لرسالة ابن فضلان أصلاً للتحقيق الذي قام به . وإليكم تفصيل الأمر : في سنة 1924 نشر ماركوارت Markwart دراسة عن الرحلة في ليبيتسك ، وفي نفس السنة تسلم المعهد الآسيوي للاستشراق في برلين برقين مصوريتين من النسخة الخطية التي اكتشفت في مدينة مشهد (طوس) الإيرانية ، ووصلت بقيمة الأوراق مصورة بعد عشر سنوات إلى المعهد . ومنذ ذلك العام نفسه نشر مقالاً بالروسية في التعريف بالنسخة الخطية المكتشفة في خزانة المخطوطات بممشد . في سنة 1926 صدر فهرس هذه الخزانة ، وفيه وصف هذه النسخة ، تحت رقم 2 «أخبار البلدان» عربي . وقد كتبت المخطوطة بخط النسخ ، وفي كل صفحة منها 19 سطراً ، وأوراقها 212 ورقة آخرها مبتور مخروم .

وأول من حقق مخطوطة مشهد وعلق عليها وترجمها هو الباحث التركي وليد زكي طوغان الذي قابلها على ما جاء عند ياقوت الحموي . ونشرها بالحروف العربية والترجمة الألمانية وطبعها سنة 1939 . وفي السنة نفسها ترجمها المستشرق الكبير كراتشوفسكي وكتب لها مقدمة ضافية ، وفي آخر دراسته نشر صورة فوتوغرافية للرسالة كاملة عن مخطوطة مشهد وبصحبه كبير<sup>(1)</sup> .

والى أساس هذه الصور الشمسية التي نشرها كراتشوفسكي يستند التحقيق كله

(1) انظر لمزيد من التفصيات مقدمة الدكتور سامي الدهان : «رسالة ابن فضلان» الطبعة الثالثة (كتب عليها أنها الطبعة الثانية!) عن مكتبة الثقافة العالمية ، بيروت ، سنة 1987 .

الأديب»، الذي جمع فيه أخبار الأدباء إلى أيامه، ورتبهم فيه حسب حروف المعجم، وأشار إلى من اشتغل منهم بالكتابية أو الوراقية أو النسخ أو الشعر. ويُعتبر الكتاب موسوعة ضخمة للأدباء. ذكر ياقوت في مقدمته كتب الترجم الكثيرة التي استفاد منها، وتدل القائمة الكبيرة التي ذكرها على أنه علم من أعلام مؤلفي الموسوعات في التاريخ. كما يدل على ذلك أيضاً تأليف كتاب «معجم البلدان»، وهو موسوعة جغرافية ضخمة تستغرق عدّة مجلدات، رُتّبت هي الأخرى على حروف المعجم، وتتضمن معلومات أدبية وتاريخية ولغوية في غاية التنوع والثراء.

### ياقوت الحموي ليس الوحيد الذي يشير إلى ابن فضلان

من حينها حتى يومنا، جرى اعتبار ياقوت الحموي المصنف الوحيد الذي ينقل عن ابن فضلان ويشير بصرامة إلى ذلك بعبارات من قبيل: «وقرأت رسالة عملها أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد مولى محمد بن سليمان رسول المقتدر بالله إلى ملك الصقالبة ذكر فيها ما شاهده منذ انفصل من بغداد إلى أن عاد إليها» أو «قرأت في كتاب أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد رسول المقتدر إلى بلاد الصقالبة» أو بعبارات نقدية بصدق ما وجده في الرسالة من الأنيكار المتأففة للمنطق والعقل.

على أننا اكتشفنا أن ياقوت ليس الوحيد الذي يعترف بنقله واستشهاده بابن فضلان. القزويني كان يفعل في كتابة (آثار البلاد وأخبار العباد)، وبثلاثة مواضع من كتابه:

1- «قال ابن فضلان في رسالته: رأيت جيحون وقد جمد سبعة عشر شبراً. والله أعلم بصحته».

2- «حكى أحمد بن فضلان رسول المقتدر بالله إلى ملك الصقالبة لما أسلم فقال: عند ذكر باشفترت وقعنـا في ... إلخ.

3- «حكى أحمد بن فضلان لما أرسله المقتدر بالله إلى ملك الصقالبة وقد أسلم حمل إليه الخلع. وذكر من الصقالبة عادات عجيبة منها ما قال: دخلنا

عبارة، بأنّه ينقل عنه، خاصة تحمّلت المواد: خوارزم، باشغوف، إتل، روس، خزر. وقد أثبتت ياقوت قرابة عشرين صفحةً من الرسالة، وترك خمس عشرة صفحةً منها، فكانه، كما يقول د. الدهان، نقل ثلثيها وبقي ثلث واحدٌ على الأقلّ - مجھولاً.

هل كان ياقوت الأول والوحيد الذي يصرّ جهاراً بنقله عن ابن فضلان كما يقول د. الدهان ويتبعه الجميع بعد ذلك؟ كلا. وهنا واحدة من نتائج بحثنا في رسالة ابن فضلان ومن فضائل طبعتنا الحالية هذه كما سنرى.

لنعد إلى المستشرقين المهتمين بتاريخ الروس والبلغار، ولنر إلى أنّ اهتمامهم سنة 1800 قد قادهم إلى نشر ما قاله العرب عن الروس وفيهم الإدريسي والمسعودي وأبن فضلان (عبر ما ينقله ياقوت فحسب لأنّ نسخة مشهد كانت مجھولة). سنة 1841 جمع المستشرق راسموسون Rasmussen مقاطع من فصول ياقوت المنقوله عن ابن فضلان وترجمها إلى الروسية، ونقلها عنه إلى الإنكليزية نيكللسون بعد أربع سنوات. سنة 1819 جمع المستشرق الألماني فريين Fraehn مخطوطات ياقوت ليستخرج منها ما نقله الأخير عن ابن فضلان ونشرها تباعاً منذ سنة 1822. سنة 1863 نشر وستنبلد دراسةً بالألمانية عن الرحلات عند ياقوت وفيها رحمة ابن فضلان، وكان يجمع مخطوطات ياقوت من أجل نشر معجم البلدان. وفي سنة 1899 نشر فستينغ Festberg دراسةً كذلك عن ابن فضلان. وفي سنة 1902 نشر المستشرق فون روزن Rosen مقالاً بالروسية عن ابن فضلان كذلك. سنة 1911 كتب المستشرق التشيكى دفورجاك Dvorak دراسةً عن رحلة ابن فضلان نشرها في براغ، وبعد عامين نشر برتولد Barthold بالروسية دراسةً عن موضوع الرحلات إلى روسية عند العرب.

كان ابن فضلان (المنقول عبر ياقوت الحموي) في صلب اهتمامات هؤلاء المستشرقين. وكان ياقوت إذن حلقةً وصلٍ وتعريف بالرجل قبل اكتشاف مخطوطة مشهد آنفة الذكر.

وياقوت الحموي (ولد عام 1178م - توفي عام 1228م) هو أديب ومؤلف موسوعات، ولد في مدينة حماة السورية. اشتهر بكتابه «إرشاد الأريب إلى معرفة

يضم ، إضافة للرحلة التي حققها الدهان ، ما يحسبه مؤلفه القسم المفقود منها ، الصائغ أصله ، بل إنه يسعى إلى تقديم كشف جديد بشأن مسارها ، زاعماً أن الرجل قد وصل حتى البلدان الإسكندنافية . والكتاب موضوع الإشارة قد صدر تحت عنوان :

رسالة ابن فضلان : مبعوث الخليفة العباسى المتقدّر إلى بلاد الصقالبة ، عن رحلته إلى بلاد الترك والخزر والصقالبة والروس واسكندنافيا في القرن العاشر الميلادي ، جمع وترجمة وتقديم الدكتور حيدر محمد غيبة ، الشركة العالمية للكتاب ش.م.ل مع آخرين ، سوريا 1991 .

في المتن الطويل لعمل كريكتون ، الذي يسميه د. حيدر محمد غيبة (النص الإنكليزي) للرحلة يبدو ابن فضلان وقد دفع دفعاً لأن يكون فارساً ومتغراً قروسطياً على الطريقة الإسكندنافية . من أين حصل الدكتور غيبة على هذا المتن؟ سأتوقف قليلاً وبالتطويل اللازم إذا استدعي الأمر لمناقشة هذا العمل بسبب الارتكاك والخفة المتأهية ذات المزاعم العلمية ، التي أنجذب بها الدكتور حيدر محمد غيبة عمله .

يدرك الدكتور حيدر محمد غيبة في مقدمته أن السيدة زوجته دفعت إليه عام 1984 كتاباً باللغة الإنكليزية للسيد ميكائيل كريكتون بعنوان :

(أكلة الأموات : خطوط ابن فضلان عن خبرته بأهل الشمال في عام 922 ميلادية)

Michael Crichton: Eaters of The Dead, The Manuscript of Ibn Fadlan Relating His Experiences With The North Men In A.D. 922

وهو كتاب منشور عن «مؤسسة بنتام» بالاتفاق مع شركة الفريد نوف المساهمة عام 1976<sup>(3)</sup>

Published in 1976 by Alfred A. Knopf, Inc. 193 pages.

(3) إسم الناشر وسنة الطباعة مكتوبان في نص الدكتور غيبة بالعربية فقط . نحن من استخرجنا دار النشر وسته باللغة الإنكليزية .

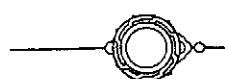
عليه ... .

والاستشهادات هذه مضمومة كاملة في هوامش طبعتنا الحالية . والقزويني هو أبو عبد الله بن زكريا بن محمد القزويني ، ينتهي نسبه إلى أنس بن مالك عالم المدينة . ولد بقزوين في حدود سنة 605 للهجرة (1184 م) ، وتوفي سنة 628 هـ (1226 م) . اشتغل بالقضاء مدة ، ولكن عمله لم يلهه عن التأليف في الحقوق العلمية . شغف بالفلك والطبيعة وعلوم الحياة ، وكانت أعظم أعماله شأنه في نظرياته في علم الرصد الجوي . مؤلفه الرئيسي هو كتابه المعروف (عجائب الملوك وغرائب الموجودات) وفيه وصف للسماء وما تحوي من كواكب وأجرام وبروج ، والأرض وجبالها وأوديتها وأنهارها . إلخ . وقد رتب ذلك ترتيباً آبجدياً دقيقاً . كما كتب مصنفه (آثار البلاد وأخبار العباد) وفيه ثلاث مقدمات عن الحاجة إلى إنشاء المدن والقرى ، وخصوصيات البلاد ، وتأثير البيئة على السكان والنبات والحيوان ، كما عرض لأقاليم الأرض المعروفة آنذاك وبلدانها ومدنها وشعوبها ، وخصوصيات كل منها . توفي ياقوت سنة 1228 م بينما توفي القزويني سنة 1261 م أي أن بينهما 33 سنة فقط . يسبق إذن ياقوت الحموي القزويني ببضع سنوات ، هل يجوز أن يكون القزويني قد نقل عن ياقوت المقاطع المتعلقة بابن فضلان؟ أشك بذلك بعمق ، لأن من غير المستبعد البنة (بل من المؤكد) أن تكون نسخة من كتاب ابن فضلان قد وقعت بين يديه هو نفسه وذلك لطبيعة إشاراته الصريحه المثار إليها لرسالة ابن فضلان ، إضافة إلى أن معاصرته مؤلف آخر يشتغل مثله على المادة والمعلومات المتوفرة نفسها في عصريهما ، لا تنفي وقوع نسخة من الرسالة بين يديه .

وعلى أية حال فنحن أمام واقعة جديدة ، رعا فاتت على من عالج ابن فضلان ودرسه ، وهي أن القزويني ، وليس ياقوت ، لوحده ، من يستخدمه ، بصراحة ، مرجعاً من مراجعه ويسميه باسمه ويعرف بنقله عنه .

هل زار ابن فضلان البلدان الإسكندنافية؟

بعد عمل الدكتور سامي الدهان الرائد ، توقفنا ، بانتباه أقل ، أمام كتاب آخر



المغامرات العجيبة الغربية التي لا تمت إلى روح مخطوطه مشهد بصلة فإن شكاً كبيراً يحوم حول مصادره . ما هي مصادره؟

يذكر د . غيبة أن كلاً من كريكتون مؤلف (أكلة الأموات) والباحث النرويجي قد اعتمدَا على ترجم المقتطفات الواردة في معجم ياقوت وترجم رسالة ابن فضلان حتى عام 1951 باللغات العربية واللاتينية والفرنسية والدانماركية والسويدية والإنجليزية ، دون أن تكون نسخة مشهد بينها<sup>(5)</sup> . ويفصِّل الدكتور غيبة ، في واحدةٍ من تناقضاته الكثيرة ، أن من الغريب أن يحدث إهمالٌ لنسخة مشهد المنشورة في برلين بنصَّها العربي وترجمتها الألمانية سنة 1939 . هنا التباس ثان . من الواضح أن ترجم المقتطفات تلك ما هي إلا الفصول التي نقلها ياقوت عن ابن فضلان ولا شيءٌ سوى ذلك . لأننا لا نعرف شيئاً سوى ذلك في الحقيقة قبل مخطوطة مشهد إلا تفاصيلاً متأخرة لا قيمة لها باللغة الفارسية .

يتلَقَّ د . غيبة ملاحظة كتبها الدكتور سامي الدهان ويدرك فيها أن هناك ورقة أو ورقتين ضائعتين من مخطوطة (مشهد) لكي يجعلنا نعتقد أن صفحات المغامرات الطوال من (رواية) كليكتون (أكلة الأموات) مخطوط ابن فضلان عن خبرته بأهل الشمال في عام 922 ميلادية هي التي تسد مسداً تلَكَ الورقين . وفي هذا إجحاف بعيد وضربي من عدم الدقة العلمية ، فتلك الصفحات تغطي ، في الحقيقة ، العشرات بل المئات من الأوراق المخطوطة .

ويدلُّ من مخطط الرحلة الذي نعرفه والذي يعاني ، على أية حال ، بعضًا من الخلل بسبب فقدان أجزاء من مخطوطة مشهد ، يقترح الدكتور غيبة استناداً إلى السختين العربية - النرويجية والإنجليزية الخطط التالي :

أ: في الذهاب

1- بلاد العجم والترك

2- الروسية

(5) لا يقول لنا د . غيبة كيف توصل إلى هذه النتيجة وما هي ترجم رسالة ابن فضلان التي اعتمد عليها المؤلفان اللذان يستشهد بهما .

من الشير أنا نقرأ على الغلاف الخارجي الثاني من الكتاب ، كما ينقل د . غيبة ، التعريف التالي بالعمل :

(أكلة الأموات : الرواية الجديدة الرهيبة مؤلف رواية «السطو العظيم على القطار» وهذه أولى الإشارات التي لا تدفع البتة للاطمئنان إلى طبيعة عمل السيد كريكتون ، لأنها تصفه (بالرواية) . على أن الدكتور غيبة ، كما المؤلف كريكتون نفسه ، يؤكد إقناع القراء بأن العمل من طبيعة تاريخية موثوقة ، لا يرقى إليها الشك ، وهو ما سنناقشه .

خلاصة الأمر أن الدكتور غيبة متمنع من خلال قراءته وترجمته لكتاب كريكتون بالأمرتين التاليين :

أولاً: أن مهمة الكاتب ، كريكتون ، اقتصرت على جمع أجزاء رسالة ابن فضلان وترجمة بعضها ، والتقديم لها والتعليق عليها ، معتمداً في الفصول الثلاثة الأولى على مخطوط ابن فضلان كما هو مترجم من روبيرت ب . بليك Robert P. Blake وريشاردن . فراي Richard N. Frye ومن ألبرت ستانبورو كوك Albert Burrough Cook.

ثانياً: أن المؤلف كريكتون يعتمد فيما تبقى من عمله على الترجمة النرويجية لرسالة ابن فضلان التي قام بها الأستاذ النرويجي بير فراوس - دولوس الذي جمع ما تناول من أجزاء الرسالة<sup>(4)</sup> بلغات مختلفة ونقلها للنرويجية بين السنوات 1951 و حتى وفاته 1959 .

من هنا تبدأ الالتباسات كلها في عمل الدكتور غيبة . فهل الفصول الثلاثة الأولى في عمل كريكتون هي تلك المترجمة عن مخطوط مشهد؟ لا نحر جواباً ، رغم أن ظاهر الكلام يوحِي بذلك . وإذا كان الحال كذلك فلا بأس عليه وعلينا ، فنحن ثانية في صلب عمل ابن فضلان الذي نعرف . أما إذا كان العمل التجميلي - وهو عصب الفصول الأخرى - الذي قام به الباحث النرويجي بير فراوس دولوس هو تلَكَ

(4) وأنا أكيد البتة ، لأسباب منهاجية وعلمية ، من أن الأمر يتعلق برسالة ابن فضلان التي تعنى هنا .

مخطوط كوبنهاغن ، كما يقول كريكتون نفسه ، مشكوك به ، والترجمات التي يذكرها غير دقيقة ولا تضيف جديداً. بعد ذلك مباشرة يقول : «اكتشف مخطوطات جيدان عام 1878 في مجموعة التحف الأثرية الخاصة بسفير بريطانيا السابق في القسطنطينية ، سير جون أمرسون .. وأحدهما لأحمد الطوسي ويعود تاريخه الموثوق لسنة 1047 الميلادي ، وهذا يجعله أقرب مخطوط ابن فضلان الأصلي .. مع ذلك يعتبر الباحثون مخطوط الطوسي أقل ثقلاً من جميع المصادر ، ويتعدد كثيراً من المؤلفين في قبول أعماله لكثرته ما فيه من الخطأ الظاهر والتناقضات بالرغم من أنه ينقل مقتطفات مطولة من ابن الفقيه الذي زار بلاد الشمال». هذا المصدر ، وعلى لسان كريكتون مشكوكه أيضاً ، ولا يبيو تبنته وهو ينقل نصاً لابن فضلان وإنما يجمع أحاديث عن بلاد الشمال من مؤلفين مختلفين (ابن الفقيه مثلاً كما يقول كريكتون نفسه).

هنا يبدو كريكتون وهو يخلط أشد التخلط رغم نبرته الواقة ظاهرياً . ثم يمضي للقول عن مصادر مخطوطاته : «ويقع تاريخ المخطوط الثاني لأمين الراري بين عامي 1585 و 1595 الميلاديين . وقد كتب باللغة اللاتينية وتُرجم مباشرة من النص العربي لمخطوط ابن فضلان كما يقول مؤلفه . ويتضمن مخطوط الراري بعض النصوص عن أتراك الغزية وعدة مقاطع عن معارك مع «وحش الضباب» التي لم يرد ذكرها في المصادر الأخرى». وهنا يحتاج المرء لقليل من الذهن الصافي لكي يميز معاني الكلام في نص الروائي كريكتون ، وهو أن الراري ينقل (مقاطع فح慈悲 من نص ابن فضلان). هنا ما يقوله كذلك د. الدهان في هامش له أورданاه نحن في عملنا : «وأما في كتاب (هفت إقليم) للرازي فالتفصيل يزيد النص أهمية وقد نقل عن مخطوطة ابن فضلان ضاعت». نص كريكتون نفسه يوحى بأن نص الراري يتناول جملة من القضايا ولا يتعلّق برسالة ابن فضلان لوحدها . ثمة إذن تخلط جديد.

ما تبقى من تحقيقات كريكتون من طينة المنطق نفسه : جميع الأصول التي يستند إليها مشكوك بها أو أنها تتكلم عن بلاد الشمال استناداً إلى مصادر متعددة ، لاتينية خاصة ، وليس من مصدر وحيد واحد هو ابن فضلان . ربما ذكرت مصادر كريكتون ابن فضلان عرضاً أو عبر مؤلف آخر يستشهد به ، ولكنها ليس البتة مخطوطة أصلية

### 3- شمال أوروبا وإسكندنافيا ب: في الإياب (طريق العودة لمِدْحَدَد)

#### 1- بلاد الصقالبة

#### 2- إقليم الخزر

واضعاً شمال أوروبا وإسكندنافيا في عصب رحلة ابن فضلان ، وهو ما يظهر بالفعل في كتابه (ترجمته لكتاب كريكتون أي النص الإنكليزي) الذي تشغله الرحلة الافتراضية هذه فيه الفصول الطوال من 5 إلى 16 . وهذا الترتيب يريد ، كما يقول هو نفسه ، التوفيق بين التنصين العربي والإإنكليزي . ولكن ماذا لو كان نص كريكتون الإنكليزي هو مجرد تخيلات جميلة سطرها قلم روائي بارع؟ هذا ما لا يجيب عليه د. غيبة على الرغم من أنه هو نفسه يشير الشكوك حول مصداقية النص الإنكليزي هنا وهناك متناسياً حماسه له .

لو تركنا جانباً مقدمة د. غيبة وانصرفنا إلى مقدمة كريكتون ، فإن البحث العلمي والتاريخي فيها يختلط بخيال الروائي . ففي مقطع طويل عنوانه (مصدر المخطوطة) لا ندرى فيما إذا كان يتحدث ثانيةً عن أعمال المستشرقين الذين يترجمون فصول رسالة ابن فضلان التي نقلها لنا ياقوت ، أم عن مخطوط أصلي لابن فضلان . هذا الالتباس مدوح بالفعل . ولو لا ضيق المساحة والخشية من التطويل لناقشتنا كل فقرة من فقرات هذا المقطع . سأتوقف عند البعض منها فحسب :

بعد حديث كريكتون عن مقاطع رسالة ابن فضلان في معجم ياقوت المترجمة مراراً ، يقول لنا فجأة «اكتشف جزء آخر من المخطوط في روسيا عام 1817 ، ونشر باللغة الألمانية في أكاديمية سانت بطرسبرغ في عام 1923 . ويتضمن بعض المقاطع التي سبق نشرها من قبل ج. ل. راسموسن عام 1914 ، وقد استقى راسموسن عمله من مخطوط وجده في كوبنهاغن ، ثم اختفى ، ومن مصادر مشكوك بها . كما ظهرت في ذلك الوقت ترجم سويدية وفرنسية وإنكليزية ، إنما عرفت بعدم دقتها وخلوها على ما يبدو من مادة جديدة». إحدى الإشارات في هذا المقطع تشير إلى الورقتين المصورتين من النسخة الخطية التي اكتشفت في مدينة مشهد (طوس) الإيرانية التي تسلمهما المعهد الآسيوي للاستشراق في بطرسبرغ ، في حين أن

عن ابن فضلان، ويعدّ فيها مصادره بطريقة جد غامضة توحى بأنه في صميم عمل تاريخي ، كما يضع في ثنايا نصه الكثير من الهوامش التي تشرح طقساً أو تقليداً إسلامياً ، مما ينبع القراءة بعداً جديداً يسعى عامداً إلى طمس الحدود بين التخييل والواقعي .

هذه الحيلة الجميلة ، لكن الخطأ ، تسعى إلى اندغام لا فكاؤ منه بين الحقيقة والخيال ، والإيحاء للقراء بأنهم في صلب واقعة تاريخية لم يفعل هو إلا نقلها إليهم ( وهو ما لم يقل كريكتون بعكسه للأسف الشديد حتى اللحظة ) . حيلة روائي هوليوودي من طراز رفيع . لكن هذه الحيلة لم تفت على نقاده الأميركيين الأكثر جدية الذين وصفوا العمل في الصحافة بأنه : «كتابة متخيّلة لقصة مأخوذة من سفير عربي إلى بلاط الخليفة في بغداد»<sup>(7)</sup> .

A fictionalized account taken from the manuscript of an Arabic ambassador to the court of the Caliph of Baghdad.

إن أعمال الروائي هي على حد تعبير الناقد الأميركي دافيد لانغران David Lonergan : الورقة تروي تعدد المعانى التي سعى الروائي ميكائيل كريكتون عبرها منح أعماله مظهراً غير متخييل . التقنيات الخاصة والناتجة المستخدمة في (أكلة الأموات) قد لوحظت .

The paper chronicles the variety of means with which the novelist Michael Crichton has attempted to give his works the appearance of nonfiction. The specific and successful techniques utilized in Eaters of the Dead are noted, and the resulting erroneous classifications by the Library of Congress and subsequent cataloguers discussed.

لكن الحيلة فاتت على البعض الآخر منهم ، من يضربون عميقاً بالجهل بتاريخنا

(7) هذه العبارة لا تقل جهلاً عن جهل كريكتون بالمعطيات التاريخية ، وتفسر الوعي الأميركي بالتاريخ العربي الإسلامي ، فإن هذا السفير كان مبعوثاً من طرف الخليفة وليس إلى الخليفة . نقل العبارة فحسب لأنها تؤكد على الطابع الخيالي للعمل .

آخر لرسالة الرحالة العربي غير التي نعرف ، رغم أن كريكتون يريد الإيحاء ، بأسلوب ملتو ، بأن عمله قائم على مخطوطه من مخطوطاتها . في هذا الإيحاء ثمة لعبة رواية بارعة ، لا تمت بصلة للبحث الرصين . وهو ما يفعله كريكتون بمهارة فائقة أربكت د . غيبة وأخرين من أساتذة الجامعات ( كالدكتور عبد الله إبراهيم ) حتى حسب كلامه دقيقاً وعليناً ومؤثراً .

لنقل في البدء كلمة عن الروائي : إنه الأميركي (جون) ميكائيل كريكتون ، روائي وسينائي مولود سنة 1942 . أنهى دراسته في جامعة هارفارد ، ثم تنقل بين دراسة الأثروبولوجي والبيولوجي ، وكرس نفسه في نهاية المطاف للكتابة . أصدر العديد من الدراسات الأدبية وكتب العديد من الأفلام السينمائية التي أخرج أو أنتج قسماً منها بنفسه . كما كتب العديد من الروايات الخيالية أو المستمدّة من مادةٍ تاريخية وكان بعضها من الكتب الأكثر مبيعاً في أمريكا :

(The Great - 1969) و (The Andromeda Strain - 1972) و (The Terminal Man - 1975) و (Train Robbery - 1976) و (Eaters of the Dead - 1976) وهي الرواية التي تعنينا هنا و (Rising Sun - 1990) و (Sphere - 1987) و (Congo - 1980) و (Jurassic Park - 1993) و (Disclosure - 1992) و (The Lost World - 1996) و (Airframe - 1999) و (Timeline - 1999) ، وغير ذلك<sup>(6)</sup>

يكتب كريكتون رواية تاريخية لا أكثر ولا أقل ، ويشير إلى ذلك في الغلاف الثاني من كتابه . إنها رواية خيال Fiction تاريخية على غط روایات أمين معرف (ليون الأفريقي ، على سبيل المثال) . لكن خلافاً لمعرف الذي يهتم كثيراً بالتفاصيل التاريخية ويصوغ وفق مخطط روائي متخييل ، فإن كريكتون يجمع القليل جداً من التفاصيل المستلهمة عرضاً عن بطله ابن فضلان ، ويصوغ الباقى كله وفق مخطط روائي مختلف بال تماماً .

على أنه يستخدم حيلة رواية مدهشة وهي أنه يكتب مقدمة تعريفية شبه جادة

(6) في البحث عن كريكتون استعنا بالويب على الإنترنيت . ووجدنا الموقع الشخصي لميكائيل كريكتون وعشرات المقالات والتعليقات له وعنه ، ونحن نستعين بها هنا في تحلينا .

الفضليين .

هاكم هذه المقاطع :

«فُلُوبِكُمْ (أيها العرب) عبارة عن كيس كبير يطفح بالأسباب»<sup>(11)</sup> في السخرية من التزعة العقلانية عند العرب .

«أنتم العرب أغبياء أكثر مما يمكن أن يتصور»<sup>(12)</sup> .

«لا أريد أن أسمع أسللة من أحمق»<sup>(13)</sup> أي من عربي .

إذا لم يكن مسحوراً فربما أصبح عربياً إذ أنه يغسل ملابسه الداخلية وجسمه كل يوم»<sup>(14)</sup> بالسخرية من تزعة النظافة المستمرة والطهارة عند المسلمين . وقال للحجارة : لا يزال عربياً<sup>(15)</sup> بسبب تأوه بطل كريكتون ابن فضلان بعد غسل جروحوه بالماء الملح على يد فتاة شمالية .

في رواية كريكتون فإن ابن فضلان يتكلم باللاتينية ، ويتفاهم بها ، وهنا أمر كان يتوجب على د . غيبة التوقف أمامه ملياً ، ولم يفعل . لكنه إزاء تنامي وتصاعد حدة التناقضات والإشارات التي تؤكد أن العمل مصنوع صنعاً كرواية كان مجبراً على التوقف والتساؤل مرات قليلة . ففي تعليقه على ما ورد في الرواية عن مرور ابن فضلان ومشاهدته لمدينة بلغار من على ظهر قاربه من بعيد ، يقول د . غيبة : «إذا كان ابن فضلان لا يعرف شيئاً عن هذه المدينة حتى الآن ، فهذا يتناقض مع الاعتقاد بقيامه بزيارة بلغار ملك الصقالبة قبل زيارته سائر بلاد الروس وشمال أوروبا . وإذا كانت زيارته لبلاد الصقالبة بعد عودته من بلاد الشمال ، فإنه يتعارض مع التقائه بأصحابه في بلاد الصقالبة بدون أي تمهيد أو إشارة إلى التئام شملهم ، إلا أن يكون حدثاً عن ذلك هو من الأجزاء المبتورة التي لم يُشر إليها حتى الآن ، كما ألمنا في

(11) ص 103 عند د . غيبة .

(12) ص 120 عند د . غيبة .

(13) ص 153 عند د . غيبة .

(14) ص 162 عند د . غيبة .

(15) ص 170 عند د . غيبة .

العربي الإسلامي<sup>(8)</sup> .

لقد ترجم د . غيبة رواية كريكتون الخيالية ومنحنا الفرصة للاطلاع عليها ، معتقداً أنه يترجم وثيقة تاريخية . وشتان بين الاثنين .

يظهر ابن فضلان في الرواية واحداً من الشخصوص الرئيسيين ، لكنه بطل يحمل جميع السمات السلبية التي ما فتئ بعض الفكر الغربي يلصقها بالعرب . ابن فضلان فيها هورمز للعربي (لا يعرف كريكتون أن الرجل كان مولى ! ومن أين له أن يعرف) . فهو جبان إلى أبعد الحدود ، ولا يمتلك روح النكمة ، مزجور على الدوام بسبب تدخلاته الفظة بما لا يعنيه ، مرتعد الفرائص»<sup>(9)</sup> ولا يريد أن يكون بطلاً «ومترم في تدييه بادئ الأمر ثم متنافق مع معتقداته الدينية . غبي ، لا يعرف السباحة ، مندهش من خصرة الغابات التي لا تعرفها صحراؤه . بالمقابل يبدو رجال الشمال الغايكونغ ، وعلى لسان الراوي ابن فضلان نفسه ، أشداء ، لا يخافون شيئاً ، جسورين وشجعان إلى درجة يبدو معها ابن فضلان بينهم فأراً تافهاً مختبئاً في جحره وفي أحسن الحالات ديكوراً أكزوتيكيًّا متعتاً . ثمة سخرية متناهية وحطٌ من شأن العرب في عمل كريكتون وتفكه فظ من نزعتهم الدينية التوحيدية<sup>(10)</sup> ، وهو أمر يدعو إلى دهشة وعلامة استفهام عظيمة على طبيعة تفكير الدكتور غيبة الذي حسب العمل توثيقاً تاريخياً ، والمزيد من الدهشة من عمل الناقد د . عبد الله إبراهيم الذي راح يحلل بحماس منهجي (الآيات السرد) في تجديفات كريكتون الشخصية وسخريته من العرب ويحسبها نصاً أصلياً لابن فضلان . أليس من العجب العجاب أن تفوت سخرية مرة ، فاقعة بإشاراتها المتعالية على قلمين مثل قلمي هذين الدكتورين

(8) يكتب الناقد الأمريكي آدم لش Adam Lesh عن عمل كليكتون : «كتب هذا الكتاب بوصفه كتاباً مدرسيًّا أكثر مما هو رواية . . . وهذا خطأ فاحش كما تحاول أن تبين هنا .

This book is written more like a scholarly work than like a novel, yet it definitely tells a story.

(9) ص 194 عند د . غيبة .

(10) ص 215 عند د . غيبة .

تعلينا ، هم قبل غيرهم ، الخذر المنهجي : أحد شروط البحث العلمي<sup>(20)</sup> .  
الأنكى من ذلك أن المؤلف نفسه كريكتون ، كما لاحظ مراقب فرنسي ، يريد  
اليوم استبعاد هذا العمل من مجموعة مؤلفاته<sup>(21)</sup> (انظر كذلك ما كتبه الناقد  
الأمريكي داني بي Yee بهذا الاتجاه نفسه)<sup>(22)</sup> . لماذا؟ لأن المقدمة التاريخية  
التي كتبها بثغة على أنها تستند إلى معطيات تاريخية موثوقة ، لا تبدو مستندة إلى  
شيء موثوق ، وأنه ربما يخشى الفضيحة الثقافية ، خاصة وأنه لم يقرأ ، كما هو  
واضح ، متن مخطوطته مشهد المترجم مراراً إلى لغات عدّة تتفق الإنكليزية على  
رأسها . إنه يكتب فتازيا خالصة جرى إنتاجها فعلاً فيما بعد ، سنة 1999 ، بفيلم  
مقامرات سينمائي على الطريقة الأمريكية تحت عنوان (1999 - Thirteenth Warrior )  
كان هو شريكًا في إنتاجه .

(20) يكتب د . عبد الله إبراهيم مثلاً : «يقول كريكتون (الذي أعاد ترثيل الأصول المفقودة لرسالة ابن

فضلان = ر بما على سبيل التخييل في بعض الفصول) بالإنجليزية اعتماداً على مقاطع تم العثور عليها  
بلغات كثيرة . . . . ملاحظته القائلة « بما على سبيل التخييل في بعض الفصول» لا تعمي أنه قد  
صدق بالكامل بعنوان كريكتون واستند إلى مشاهد روائية كاملة وحللها على اعتبارها نص ابن  
فضلان . نصح بالعودة إلى النص الكامل لدراسة د . إبراهيم المنشورة في موقعه على الإنترنت .  
وقد سبق له أن نشرها في الصحافة العربية .

(21) هذا ما يقوله معلم فرنسي على الفيلم المنتج من روايته : «كتابه الصادر سنة 1992 : (أكلة  
الأموات) هو كتاب صغير من كتب المؤلف (أقل من 200 صفحة) يسعى المؤلف لسبب غامض أن  
يختفيه من مؤلفاته» .

Paru en 1992. EATERS OF THE DEAD est un "petit" livre pour l'auteur (moins de 200 pages), que CRICHTON cherche, pour une raison obscure, à faire disparaître de sa bibliographie.

(22) كتب المعلن الأدبي (داني بي) يوم 11 آب 1992 يقول في ملاحظة له عن الكتاب :  
Apparently Crichton has disowned Eaters of the Dead and it doesn't appear in his official  
bibliography. I'm not sure what the reason for this is.

المقدمة»<sup>(16)</sup> .  
وفي هامش آخر للدكتور غيبة بقصد تعليق ابن فضلان المذهول من وجود  
حيوانات بحرية ضخمة يسميها الروائي على لسانه وحوش البحر ، يقول د . غيبة :  
«من الواضح أن وحوش البحر التي تحدث عنها ابن فضلان هي الحيتان . إنما من  
المستغرب أن يجهل وجودها في البحر»<sup>(17)</sup> . وعندما يجعله الروائي يمارس الجنس مع  
امرأة متاجعاً شبق الشماليين اللامحدود ، يعلق د . غيبة ببعض من السذاجة : «من  
الصعب تفسير هذا الاعتراف لابن فضلان ، وهو المسلم التقى ، إلا إذا كانت الجارية  
أمّة ملوكه له باعتبار التمتع بمنتها كان مباحاً ، أو أنه فقد بعض تقاه ( . . . ) أو أن  
الإنسان يضيق أسياناً أسام الإشراء»<sup>(18)</sup> .  
لكن الدكتور الفاضل يعلن بعد صفحات قليلة علانية شكوكه العالية بعنوان  
كريكتون فيكتب في أسفل الصفحة :

«هذه الأقوال وبعض العبارات التالية تزيد الشك في أصلية النص ، ذلك الشك  
الذي يشتّت بصورة خاصة مع بعض عبارات الفصل التاسع التي تنمُ عن حذقة  
وثقافة حديثتين»<sup>(19)</sup>

لماذا لم يشكّ الدكتور حيدر محمد غيبة منذ البدء بأصلية النص؟ ولماذا كتب  
تحليلاً مطولاً في مقدمته طرح عمل كريكتون فيه وكأنه تتمةً تاريخية حقيقة لرحلة  
ابن فضلان؟ ولماذا حسب الدكتور عبد الله إبراهيم النصُّ أصلًاً لابن فضلان ، رغم  
إشارة غامضة له بعدم أصلية بعض المقاطع فقط (انظر الهامش أدناه)? ثمة خلل مدمّر  
في الثقافة العربية الراهنة يعيّر عنه مثل هذين الدكتورين اللذين يتوجب عليهمما

(16) ص 97 عند د . غيبة .

(17) ص 117 عند د . غيبة .

(18) ص 147 عند د . غيبة .

(19) ص 151 عند د . غيبة .

د . إبراهيم النص المذوف على يد كريكتون بالطبع . وبروح في تحليل طويل عن (غياب المتن) . سوى أن المتن ليس بضائع والله ، فالصفحات الطوال التي تقدمها مخطوطه مشهد هي (متن أكيد) ، يستحق التأمل والفحص رغم قصره وضياع بعض أوراقه . إننا لا نستغرب أن يقف القراء في موقف العجب من هذا النعطف من الخطاب المثقف الباهر .

### من هو ابن فضلان؟

أثبت ابن فضان لحسن الحظ اسمه : أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد ، ولم يقل لنا شيئاً آخر عن حياته ، ما عدا أنه ، كما تقول الرسالة ، مولى لفافع مصر محمد بن سليمان . ويقول ياقوت إنه كان مولى محمد بن سليمان ثم مولى أمير المؤمنين فهو من العجم المولى . هل ولد في العراق أم بأرض العجم؟ وما هو منصبـه في الإدارـة العـباسـية ، وهـل كـتب أعمـالـاً أدـبـيـة غـيـر هـذـه الرـسـالـة؟ أم أن رـحـلـتـه هـذـه لا تـعدـو أـن تكون تـقـرـيرـاً مـن هـذـه التـقارـيرـ الـتـي يـكـتـبـها السـفـراء لـدوـلـهـمـ؟ .

== كما سرـى ، حينـما يـندـمـج ، يـسـعـيـدـ وـضـعـيـتـهـ كـعـنـصـرـ فـاعـلـ ، بـعـدـ مـرـحـلـةـ الـخـمـولـ الـأـولـىـ ، يـقـبـلـ كـمـقـاتـلـ باـسـلـ ، يـسـهـمـ فـيـ اـحـراـزـ نـصـرـ مـحـقـقـ عـلـىـ (ـالـوـنـدـوـلـ)ـ ، يـصـبـحـ سـابـعـ الـاـطـالـ ، يـخـلـصـ مـنـ شـوـمـ الدـوـرـ الثـالـثـ عـشـرـ ، فـيـسـعـدـ بـالـدـوـرـ السـابـعـ ؛ الرـقـمـ الـقـدـسـ فـيـ عـالـمـ الـإـسـلـامـ . ماـنـ يـعـودـ مـنـ دـارـ الـكـفـرـ إـلـىـ دـارـ الـعـهـدـ ، إـلـاـ وـتـهـرـيـ الكـتـابـةـ الـعـرـبـيـةـ مـرـةـ ثـانـيـةـ ، لـتـذـكـرـ بـالـثـغـرـ الشـفـاهـيـ الـدـمـرـةـ الـتـيـ لمـ يـتـمـكـنـ أـحـدـ مـنـ تـخـطـيـهـ إـلـاـ بـوـسـاطـةـ الـأـخـرـ . وـلـمـ يـشـرـ يـاقـوتـ الـحـمـوـيـ إـلـىـ تـفـاصـيلـ الـرـحـلـةـ ، بـعـدـ أـنـ أـخـذـ عـنـهـ الشـيـءـ الـكـثـيرـ ، شـكـلـ فـيـ الـمـرـوـيـاتـ الـخـاصـةـ بـالـصـفـالـةـ ، وـأـعـلـنـ بـرـاهـيـهـ مـنـهـ ، وـعـدـ ضـمـانـ صـحـتهاـ . وـإـذـ صـحـتـ تـلـكـ الـمـرـوـيـاتـ الـتـيـ عـبـرـتـ إـلـيـنـاـ خـلـالـ لـغـاتـ الـأـخـرـ ، وـأـحـدـتـ بـالـعـبـارـ فـرـادـةـ الـقـامـةـ ، وـمـدـاـهـ الـوـاسـعـ ، وـأـحـدـاثـهـ ، وـأـثـرـهـ فـيـ شـخـصـيـةـ اـبـنـ فـضـلـانـ ، يـصـبـحـ مـنـ الـمـكـنـ الـأـيـمـعـ بـعـرـضـهـ عـلـىـ الـعـمـومـ كـامـلـةـ . إـذـ بـيـنـيـ أـنـ تـرـكـبـ صـورـةـ مـشـوهـةـ لـلـأـخـرـ . يـحـتـمـلـ أـنـ يـاقـوتـ الـحـمـوـيـ نـفـسـهـ ، بـعـدـ مـضـيـ ثـلـاثـةـ قـرـونـ لـمـ يـكـنـ قـادـرـاـ عـلـىـ تـصـدـيقـ أـحـدـ مـصـادـرـهـ عـنـ بـلـادـ الصـفـالـةـ . وـهـنـاكـ أـشـيـاءـ أـخـرـيـ أـكـثـرـ غـرـابـةـ فـيـ تـحـلـيلـ الـلـاحـقـ لـمـ جـالـ لـهـ هـنـاـ .

إذا ما كـنـاـ نـاقـشـ مـاـ صـنـعـهـ دـ . غـيـبـةـ بـهـذـاـ توـسـعـ ، فـلـأـنـ صـنـيـعـهـ مـؤـذـ وـضـارـ بـحـقـ رـحـلـةـ اـبـنـ فـضـلـانـ ، وـلـأـنـ هـذـهـ الصـنـيـعـ قدـ تـجـبـرـيـ بـيـنـ أـوـسـاطـ الـقـرـاءـ ، نـاهـيـكـ عـنـ دـكـاتـرـ مـثـلـ الـدـكـتـورـ الـفـاضـلـ عبدـ اللهـ إـبـراهـيمـ ، مـجـرـيـ الـحـقـائقـ الـتـارـيخـيـةـ الـدـامـغـةـ . إـنـ جـزـءـاـ لـاـ يـسـتـهـانـ بـهـ مـنـ تـحـلـيلـاتـ الـدـكـتـورـ إـبـراهـيمـ ، الـجـاجـةـ وـالـصـارـمـةـ ، تـسـتـنـدـ وـيـلـلـعـجـبـ إـلـىـ هـذـاـ الـعـمـلـ الـرـوـائـيـ الـمـتـحـيـلـ ، لـقـرـأـ : «ـ الـكـتـابـةـ تـلـعـبـ دـوـرـاـ مـهـمـاـ فـيـ تـشـبـيـتـ رـوـاـهـ (ـيـقـصـدـ اـبـنـ فـضـلـانـ)ـ وـتـصـورـاتـهـ وـأـحـكـامـهـ ، مـاـ دـامـ يـتـحـرـرـ فـيـ مـجـالـهـ الـقـافـيـ ، دـاـخـلـ دـارـ الـإـسـلـامـ . وـمـاـ أـنـ يـنـزلـ إـلـىـ عـالـمـ الـكـفـارـ إـلـاـ وـتـوـقـفـ الـكـتـابـةـ . يـصـبـعـ مـنـ الـمـخـطـطـ ذـلـكـ الـجـزـءـ الـرـئـيـسـ الـخـاصـ بـالـآـخـرـ . كـأنـ ثـمـةـ قـوـةـ سـحـرـيـةـ اـنـتـزـعـتـ كـلـ مـاـ يـتـصـلـ بـالـآـخـرـ . لـمـ يـعـشـ إـلـىـ الـآنـ عـلـىـ الـآـصـلـ الـعـرـبـيـ . كـلـ مـاـ يـتـصـلـ بـالـآـخـرـ ، تـمـ تـرمـيـمـهـ وـمـجـمـعـهـ ، وـتـرـجـمـتـهـ إـلـىـ الـلـغـةـ الـعـرـبـيـةـ اـسـتـنـادـاـ إـلـىـ شـذـراتـ مـتـنـاثـرـ بـالـلـغـاتـ الـلـاتـيـنـيـةـ وـالـأـلمـانـيـةـ وـالـفـرـنـسـيـةـ وـالـدـغـارـكـيـةـ وـالـسـوـدـيـةـ وـالـإـنـجـليـزـيـةـ وـغـيـرـهـاـ . لـغـاتـ الـآـخـرـ هـيـ الـتـيـ أـعـادـتـ إـلـيـنـاـ وـجـهـةـ نـظرـ اـبـنـ فـضـلـانـ بـالـآـخـرـ»ـ .

وـبـالـطـبعـ فـيـ إـشـارـةـ دـ . إـبـراهـيمـ إـلـىـ تـلـكـ الـلـغـاتـ هـيـ إـشـارـةـ إـلـىـ رـوـاـيـةـ كـرـيـكتـونـ الـهـوـلـيـوـدـيـةـ . هـلـ ثـمـةـ مـنـ يـضـحـكـ عـلـىـ ذـقـوـنـاـ: هـنـاكـ بـكـتـابـةـ سـاخـرـةـ عـنـ وـاحـدـ مـنـ رـحـالـتـنـاـ ، وـهـنـاكـ بـكـتـابـةـ لـاـ تـقـلـ سـخـرـيـةـ وـمـرـأـةـ وـلـكـ بـقـنـاعـ عـارـفـ فـحـسـبـ . سـيـنـتـهـيـ الـأـمـرـ بـالـدـكـتـورـ عـبـدـ اللهـ إـبـراهـيمـ بـالـشـكـ بـيـاـقـوتـ نـفـسـهـ الـذـيـ لـمـ يـسـتـطـعـ ، حـسـبـ إـبـراهـيمـ ، تـصـدـيقـ نـصـ اـبـنـ فـضـلـانـ عـنـ الـبـلـدـانـ الـإـسـكـنـدـنـافـيـةـ فـحـذـفـهـ<sup>(23)</sup>ـ؟ـ . يـسـعـيـ

(23) يقول د . عبد الله إبراهيم عن ابن فضلان مستنداً في محليله إلى رواية كريكتون : «... سقط (ابن فضلان) في الشرك الذي كان يحدّر الجميع منه : معايشة عالم الكفر . داهمه نوع من النسيان ، فعلى مرمى حجر من القطب الشمالي ، أصيبت ذاكرته بخطب عقائدي ، لكنه يتدرج ضمن الآخر عليه أن ينسى ، أن يوقف عمل الذاكرة . في البداية كان تنتهاً زائداً ، مجرد فصلة ، الرقم الرابعة المكتمل للمقاتلين البواسل الاشتباكي عشر . إنه الرقم الأخير ، الرقم الثالث عشر كما مجرد وسيلة لسد نقص ، فهي المهمة التي دفع إليها ، لا بد أن يكون ثمة أجنبى يقوم بدور تكميلي . ابن فضلان ، أصبح فصلة ، هو المسلم الختون كان مجرد قلفة للتغطية . ومع الوقت يتخفّف من ملاحظاته الانتقادية ، بسبب الجهل الشديد بالأسباب وتلك ما يفضي به إلى خطأ التفسير أو سوء التأويل . وفي النهاية ، = =

تكنُ تشتعل في الواقع العمليّ كما تشتعل على الصعيد النظريّ البحث ، مثلها مثلُ  
الكثيرِ من المفهومات السائدة الأخرى . هذا ما تبرهنَه الهجرةُ واسعةُ النطاق من طرفِ  
جغرافيين وعلماءٍ ذلك هنودٌ ، وخزافين صينيين وغيرِهم ، قادمين كُلُّهم من دارِ الكفرِ  
(الهند) (والصين) للإقامة في (دار الإسلام) ، بعِدَاد العباسية . بإمكاننا الآن تعدادُ  
العشراتِ من أسمائهم . الخطط الذي يبني عليه البعض تحليلاً لهم المعاصرة ، شأنِ  
هذه الثنائيَّة ، يبقى من طبيعةِ تلقٍيَّةِ محضر .

على العكسِ من ذلك يبدو ابنُ فضلانَ وصحبه ، وهو في موقفِ الواثقِ ، إلى  
درجةٍ كان يأمرُ بها وينهي ملكَ الصقالبةِ نفسه : « ويدأتُ فقواتُ صدرِ الكتابِ فلما  
بلغتُ منه « سلامٌ عليكَ إلهيَّ أَحمدُ إِلَيْكَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ » ، قلتُ : رُدُّ على  
أمير المؤمنينِ السلام ، فرَدَ ورَدُوا جمِيعاً بأسِرِهم ». ثُوِّقَ قادمٌ من ترسُّخِ وقوَّةِ الحضارةِ  
الإسلاميَّةِ في العالمِ القديم . ومثِلَّما لا يشعرُ الأمريكيُّ اليومَ بالهيبةِ من حضورِ  
الآخر ، فلم يكنُ العربيُّ والمسلمُ ليتعانِيَان من هذا الشعور .

## ٢- هجرة الأيدي العاملة تتبع مراكز الشروة:

تفدو العواصمُ الغنيةُ الكبُرى ، في لحظاتِ الازدهارِ الحضاريِّ ، محطاتٍ لقادمينِ  
من مختلفِ أصقاعِ العالمِ يبحثون عن لقمةِ العيش . إنَّ تجمُّعَ الشرواتِ في بقعةٍ ما  
يعنيُ من بينِ ما يعني ، أنَّ تلك العواصمَ قد صارتُ موطناً لتجمُّعِ كمياتٍ كبيرةٍ من  
الذهبِ . وهو مانزاه في عواصمِ الأرضِ اليوم : فرنسا ، ألمانيا ، الولاياتِ المتحدةِ  
الأمريكية ، سويسرا . إلخ التي تستقطبُ المزيدَ من المهاجرينِ من مختلفِ  
التخصصاتِ . إنَّ القاعدةَ العامةَ في التاريخِ الاقتصاديِّ هي أنَّ هجرةَ الأيديِ العاملةِ  
تتابعُ مراكزَ انتقالِ الذهبِ : رمزِ الشروة . هذا هو حالُ بغدادِ في العصورِ العباسيةِ  
المزدهرةِ التي كانَ وضعُها يشابهُ تماماً العواصمَ الشرقيَّةِ في وقتنا الحاليِّ . يشابهُ تماماً  
حُسْنَ بالتفاصيلِ الأكثرِ دقَّةً . فإنَّ وجودَ تجمُّعاتٍ وأسواقَ جمالياتِ أجنبيةٍ مثلِ  
الهنودِ والصينيينِ والعربِ في فرنسا ونيويوركِ اليومَ كانَ له مثيلٌ في (سوقِ خضرِ)  
لباعةٍ وصناعِ الخزفِ والغضارِ الصينيِّ في بغدادِ العباسيةِ ، وفي الأعدادِ المتزايدةِ من  
الهنودِ المشغليِن في حقوقِ التنجيمِ والرياضياتِ ، والبيزنطيينِ المشغليِن في حقوقِ

يخيلُ إلينا أنَّ سفيراً مبعوثاً إلى أقصى الأرضِ كانَ يجبُ أن يتلَكَّ الكثيرَ من  
الحكمةِ والحنكة ، لذلك نظنُّ أنَّه كانَ في الأربعيناتِ من عمرِه عندما كَلَّ بهمْتهِ .  
ويجيئُ إلينا أنَّ بعنةَ مثلَ بعنتهِ كانتْ تستلزمُ رجلاً ذا ثقافةً معقولَة ، وهو ما نظنُّ  
حالَه ، وهو ما يدلُّ عليه وصفُه المتأتي للبلدانِ والتقاليدِ التي شاهدَها عيَاناً . ونعتقدُ  
أنَّ هيئتهِ وزرْتهِ كانتَ في غايةِ الرصانةِ ، وأنَّه اختيرَ لمُقابلةِ ملوكِ الصقالبةِ والخزيرِ  
والروسِ لأنَّ شكلَه كانَ مقبولاً بالنسبةِ إليهم وقرباً من أشكالِ الشعوبِ التي زارها .

لم يَرُدْ توثيقَ حياةِ ابنِ فضلانَ في أيِّ من المراجعِ التي بينَ أيدينا ، بالضبطِ مثلَما  
لا توجدُ إلا أقلُ التفصيلاتِ عن حياةِ المُقدسِيِّ صاحبِ (أحسنِ التقسيمِ في معرفةِ  
الأقاليمِ) الباهرِ ولا حياةِ الرحالةِ أبي دلفِ . وفي ذلك إشارةٌ واضحةٌ إلى  
اللامبالاةِ التي كانتْ تُغيِّرُ نظرَةَ الثقافةِ العربيةِ إلى أعمالِ الرحالةِ العربِ ، وعدمِ اعتبارِ  
الكتابَةِ في أدبِ الرحلةِ فنَّا رفيعَ المستوى يُستحقُّ إدراجَ مؤلفيه من بينِ مصنَّفيِ  
ضروبِ الأدبِ الأخرىِ المُجلَّينِ والمُؤرَّخِ لهمِ بأكثَرِ التفاصيلِ وأدقَّها (الفقهاءِ ،  
الشعراءِ ، الأطباءِ ، النحوينِ . الخ) .

تقعُ أهميَّةُ رحلةِ ابنِ فضلانَ في أنها تُرَوِّدُ التاريخَ العالميَّ بشذراتِ مهمَّةٍ عن أمَاطِ  
معيشةِ شعوبٍ قلَّما سُجِّلت . إنَّها تسدُ ثغرةً تاريخيَّةً في هذا المجالِ وتحتَّرِ رائدًا في  
الإشارةِ لتاريخِ الشعوبِ الصربيَّةِ ، والروسِ منهم على وجهِ الخصوصِ .  
لقدْ قيلَ الكثيرُ عن هذهِ الرحلةِ وترجمَتْ أكثرُ من مرتَّةٍ لجمعِ اللغاتِ الأساسيةِ  
اليومِ في العالمِ . ونودُ هنا أن نشيرَ إلى أمرينِ اثنينِ :

## ١- علاقةِ العربِ بالآخرِ:

لا تبدو علاقةُ العالمِ العربيِّ ، أو أهلِها ثقافةُ الناطقينِ باللغةِ العربيةِ من عربٍ وغيرِ  
عربٍ مَنْ كانوا يستخدمونَ العربيةِ في حضارةِ كانتْ هذهِ اللغةُ بها شيئاً ساماً  
وضروريًّا ، بمثَلِ استلابِها هذا اليومَ مع الآخرِ ، وهو ما تبرهنَه رحلةُ ابنِ فضلانَ . لمْ  
يكنَ الاختلافُ البديهيُّ بينَ الأنا والآخرِ يتصاعدَ إلى المستوى الموصوفِ في كتاباتِ  
البعضِ من الباحثينِ العربِ المعاصرِينَ مُنْ يصفونَ العلاقةَ مع الحضاراتِ الأخرىِ  
بنطَقِ الحذرِ والرُّيبةِ ، بل إنَّ ثانيةً نهائيةً ومطلقةً بينِ (دارِ الإسلامِ) (دارِ الكفرِ) لمْ

عما شاهد ، البعض منها دقيق تماماً والأخر أقل دقة . إن قراءة ابن فضلان تمنح متعدة نادراً ما يلتقيها المرء في عمل من النوع الأدبي نفسه ، لأسباب سيكتشفها القارئ لوحده عندما يشرع بقراءة العمل .

### أي مسار اختط ابن فضلان؟

إذا ما تتبعنا الأماكن والمدن التي يذكرها ابن فضلان ، فسوف نسجل أن مسار الرحالة كما هي بين أيدينا الآن هو بلاد : العجم والترك - الصقالبة - الروسية - الخزر .

وقد أثار هذا المسار الكثير من النقاش ، فقد كان يتوجب الحديث عن بلاد الخزر قبل الحديث عن الروس لأن الطريق إلى الروس يمر أولاً بالخزر ، هل ضائع شيء من المخطوطة ، كما يقول د. الدهان ، أم أن ابن فضلان نفسه لم يكن مهتماً بأمر تسجيل شؤون الروس والخزر مثل اهتمامه بالصقالبة هدف رحلته ، وأنه وبالتالي سجل انتباعاته كيما اتفق عن ذينيك البلدين ، أم أن مخطوطة مشهد نفسها تعاني من خلل منطقى ما سبب ناسخها أو تلف جزء منها . وإذا صحت هذه الفرضية ، فهل كانت النسخة التي وقعت بين يدي ياقوت تعانى هي أيضاً من الخلل نفسه؟ لا أظن ، وفي يقيني فإن ابن فضلان قد كتب المخطوطة بهذا الشكل الذي نعرفه ، مدرجاً انتباعات وقصص رأها أو سمعها في البلدين المعنيين . ولم يزّ البتة البلدان الإسكندرافية كما يزعم الكاتب الهولنودي كريكتون ومثله د. غيبة وتابعهما بذلك ، على عجل لا يليق بالثقافة د. عبدالله إبراهيم ، ولو أنه فعل وزارها لقل من نقل عنه شذرة صغيرة ، أعني ياقوت والقوزوني ، خاصة الأخير المولع بالغرائب من كل نوع .

### هجرة الأيدي العاملة تتبع مراكز الشروة :

إن صراغاً كاماً كتلة ضرورية ، وأن تناقصاً وجودياً نهائياً ، بين الأنا والأخر ، لم يكونا موجودين ، ثمة بدلاً منهما الكثير من الانفتاح ، وهذا الانفتاح بالأحرى هو

الصناعات الدقيقة كالإسطرلاب (مثل بسطلوس المذكور لدى ابن النديم) ، ناهيك عن المزخرفين والخطاطين (مثل ياقوت المستعصمي الرومي ، البيزنطي) . كانت هناك كذلك ، كما نعلم ، حاجة متزايدة للمترجمين ، ليس فحسب من ينقلون كتب الأم الأخرى إلى العربية ، ولكن من يقومون بدور السفراء الدبلوماسيين بين الإمبراطورية الإسلامية وما يجاورها من الدول . هكذا كانت تقاطر على العاصمة مختلف اللغات والتقاليد والشعوب ، وتقيم في بغداد بحثاً عن لقمة العيش . وهذا هو ما يفسر لنا عنصرأساسياً من رحلة ابن فضلان التي تعنى هنا ألا وهو تشكيلاً من وقد يتكوّن من أربعة أشخاص هم<sup>(24)</sup> :

- 1- سوسن الروسي الذي يبدو من نسبته الروسي أنه من بلاد الروس .
- 2- بارس الصقالابي ويدلُّ اسمه بوضوح على آنه سلافي .
- 3- تكين التركي : وهو تركيٌّ من دون شكٍ يجيد لغات الآنراك التي يمرُّ الوفد ببلادها في طريقه إلى الفولغا ، وكان يعمل حداداً في خوارزم .
- 4- أحمد بن فضلان الذي كان رئيساً للوفد وكان يجهل اللغات الأجنبية كما يقول هو نفسه ، إلا آنه لم يكن عربياً بال بتة فهو أحد الموالي ، وربما كان من أصل فارسي . وكان مولى محمد بن سليمان بن المنق أبو علي الكاتب الذي فتح مصر وشتَّت آل طولون ودخلها سنة 292 هـ وقتل سنة 304 هـ . على آنه كونه مولى لا يعني ، كما نرى ، آنه كان يتقن العربية لوحدها ، رغم تبحُّره بها ، ولعله كان يتعذر لغة أجداه .
- لا ييرز ابن فضلان كبطل روسي<sup>(25)</sup> في الرحلة إلا لأنَّه كتب الرحلة ببساطة ، وهو لم يُجرِ طمس رفقة الآخرين لأي سبب متعمد أو محسوب . العكس تماماً فلو لا رحلته لما عرفنا عن أولئك آية شذرة . إنَّ كتابته للرحلة ، في الغالب ، لم تتم لكي يبني لنفسه مجدًا أدبياً ، ولا لكي يعيد الاعتبار لنفسه كما يقول البعض ، خاصة وأنَّنا لا نعرف له مؤلفاً آخر غيرها . لقد كان سفيراً وحسب سجل لنا ملاحظات قيمة

(24) الملاحظات عن الأشخاص الأربعه مستندة من د. الدهان .

(25) ملاحظاتنا التالية المتعلقة بشخص ابن فضلان و موقفه من رفقة هي وجهة نظر معايرة تماماً بعض أفكار د. عبد الله إبراهيم بشأن الرجل ورحلته .

# مسار الرحمة

بغداد  
النهروان  
الدسكرة  
حلوان  
قرميسين  
همدان  
ساوة  
الري (قرب طهران اليوم)  
خوار الري  
سمنان  
الدامغان  
نيسابور  
سرخس  
مرغ  
قشمغان  
أمل

العلة الضرورية والمحرك الداخلي لأية حضارة في لحظات ازدهارها . وتعبر خير تعبر عن هذا الانفتاح مُردات المطبخ العباسى التي قلما تلتقي فيها بطبيخ محلى تام الأصلة . لقد اختلطت مفردات المطبخ الهندية بالفارسية بالعربية أشد الاختلاط . الكل يأكل على مائدة الكل في المأدبة نفسها وإن بصعوبات حقيقية في بعض الحالات بالطبع . يتخذ البعض من هذه الصعوبات الطبيعية قاعدة لتفسير العلاقة بين الأننا والأخر بكثير من العَسْفِ .

سوئ أن جماعات العالم القديم وثقافاته ، الأكثر والأقل تطوراً ، كانت تعاني من انكماسات على الذات لأسباب منها ضيق فُسحة الاتصال وصعوبة المواصلات . لم تكن مشكلة الهوية عمناها الراهن مطروحة (فكرة الهوية بمعناها هذا هي اختراع ثقافي معاصر) ، وربما كان شيء يشابهها يحضر لأسباب تتعلق بنظام القرابة ومواريث الأرض والنظام الاقتصادي لجماعة من الجماعات الساعية لتحقيق اكتفاء ذاتي . الآخر بعيد في الجغرافيا ، لهذا فهو غامض ومجهول وسحري وموطن للخرافات . هذا النوع من إعلان (الغرابة) عن الآخر هو الذي كان مهيمناً ، وليس تلك التساؤلات ذات الطبيعة الفكرية المعقدة عن علاقة الأننا بالآخر . كلما ضرب الآخر في الأقصى والماهيل كلما تصاعدت وتيرة الحكايات غير الدقيقة عنه . هذا السبب البديهي لا صلة رحم له ، بالضرورة ، بمشكلات الأيديولوجيا : (دار الكفر) و(دار الإسلام) . إن انفتاحاً مذهلاً ، يصل إلى درجة الاحترام للأخرين المختلفين كان يحكم علاقة دار الإسلام بالحضارات الوثنية العربية ، الهندية والصينية خاصة (وهو ما يشرحه د . عزيز العظمي في أحد كتبه «العرب والبرابرة») . الأننا في الحقيقة متعددة والآخر مندمج بها ، وهو ما تبرره طبيعة الوفد المرافق لابن فضلان .

شاكر لعيبي  
أبو ظبي 12 أيلول 2002

نَصْرُ الرَّحْمَةِ

أفريز  
بيكند  
بخارا  
خوارزم  
الجرجانية  
جييت  
بلاد الصقالبة  
الروسية  
الخزر.

قال أحمد بن فضلان :

لَا وَصَلَ كَتَانٌ لِّلْكَشِ بْنِ يَلْطَوْارٍ<sup>(1)</sup> مَلِكُ الصَّقَالِبَةِ<sup>(2)</sup>

(١) في أصل مخطوطة (مشهد) الذي اشتغل عليه الدكتور سامي الدهان نقرأ «الحسن بن بطوار» بالباء، وفي إحدى أوراقها «المش بن شلكي صهر الأتراء»، وعند ياقوت الحموي الذي سميت بغير مقاطع إضافة من الرحلة نقرأ «كتاب المس بن شلكي بطوار». ويرى بعض المستشرقين أن بطوار ربما كان فلاديمير أمي ملك الغواز. أما الباحثون الذين ينقل عنهم د. دهان فبعضهم يرى أنه ألب بطوار، وإليطوار وبليطمear. وقال فرمان إن من ملوك التتر ملك يسمى «أيدار»، ويضيف أن ملك الروس على القولغا كان اسمه أيدور Igore وقد صحته العرب. وقال برتولد لأن لقب ملك البلغار بطاطون-Wal dawac .

(2) المقابلة : هم السلافيون وكانت عاصمتهم (بلفار) على نهر الفولغا الذي يجري في بلاد روسيا ويصب في بحر قزوين ، والعرب تسمى نهر (إيل) . وأثار مدينة بلفار توجد بالقرب من القرية المسماة بلغارسكوي ، وهي حوالي 115 كلم جنوب مدينة قازان على بعد 7 كلم من ضفة نهر الفولغا الشرقية . نقدم هنا ملخصاً تاريخياً لتراث السلاف حتى السنوات التي قام بها ابن فضلان برحلته سنة 921م : في نهاية القرن السابع الميلادي وصلت الهجرات السلافية إلى ضفاف الأدرياتيك . وبعدها كانت الشعوب السلافية المختلفة المنقسمة بين السلاف الشرقيين والслав الغربيين ==